دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

علاقة مجتمع القبائل بالاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر
النمامشة نموذجًا

د. محمد صلاح حقي
دكتوراه في التاريخ الحديث
باحث في تاريخ الجزائر وتونس الحديث والمعاصر
القصرين – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

خضعت الجزائر إلى الاستعمار الاستيطاني سنة ١٨٣٠ من قبل القوة الاستعمارية الفرنسية ودام الاحتلال حوالي ١٣٢ سنة مخلفًا نتائج كارثية على المجتمع الجزائري، غير أنه واجه مقاومة شرسة وعنيفة من مختلف مكونات الشعب الجزائري الذي آمن أن دحر المحتل لا يمكن أن يكون بالحوار كما فعلت بعض الدول المستعمرة في إفريقيا وآسيا نظرًا لعدم استعداد الفرنسيين للتفريط في هذا البلد نظرًا لعدة اعتبارات منها الموقع الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط وتوسطها للقارات الثلاث الأوروبية والإفريقية والأمريكية فهي بالتالي ممرًا تجاريًا مُهمًا ومركزًا تجاريًا في المتوسط ومنها الثروات الطبيعية والمنجمية والطاقية التي تتمتع بها الجزائر، غير أن هذا المخطط واجه مقاومة شرسة من مختلف مكونات المجتمع الجزائري لاسيما مجتمع القبائل ومنه قبيلة النمامشة محور دراستنا التي أخذت على عاتقها وزر المقاومة في منطقة الأوراس في الشرق الجزائري والتي عرقلت تقدم القوات الفرنسية نحو تبسة التي ظلت المنطقة الوحيدة العصية على الاحتلال بعد اخضاع بقية المجال الجزائري لتبقى تبسة خارج الاستعمار من ١٨٣٠ تاريخ دخول قوات الاحتلال الى الجزائر الى حدود ١٨٥١ وحتى في هذا التاريخ لم تتم السيطرة الكلية على القبيلة بل ظلت المناوشات تتجدد من حين لآخر.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ يونيو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ يوليو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

تبسة؛ الاستعمار الفرنسي؛ قبيلة النمامشة؛ تاريخ الجزائر الحديث؛ السلطات الاستعمارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.401506

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد صلاح حقي، "علاقة مجتمع القبائل بالاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر: النمامشة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد السادس والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٤. ص ١٤٣ – ١٥٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: shedi1636@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدّمَةُ

خضعت الجزائر للاستعمار الفرنسي سنة ١٨٣٠ وهو تاريخ يعرفه كل دارس للحركة الوطنية الجزائرية ودام هذا الاستعمار الاستيطاني قرابة ١٢٥ سنة مخلفا نتائج كارثية على الشعب الجزائري، غير أن هذا الفترة الطويلة التي استقر فيها الاستعمار في الجزائر لم تكن وردية بالنسبة للفرنسيين وانما جوبهوا بمقاومة شديدة من مجتمع القبائل لاسيما قبيلة النمامشة التي استطاعت أن تؤجل سقوط مدينة تبسة الى سنة ١٨٥٧ لما أظهرته من شدة وبسالة في مناهضة الاستعمار، إلا أنها كانت سببًا في استسلام أعيان مدينة تبسة الذين اضطروا – تحت ضغط الهجومات المتتالية من قبل مجتمع قبيلة النمامشة وضعف السلطة العثمانية التي بدأت تتلاشى ممّا أفقدها السيطرة على الجزائر عامة وتبسة خاصة – إلى طلب حماية الاستعمار لهم من بطش القبائل لتنقسم بذلك المواقف في تبسة الى موقف مناهض ومقاوم للفرنسيين وهو موقف قبيلة النمامشة وبالتالي مجتمع القبائل وموقف مهادن ومسالم بل ومطالب بالتسريع في احتلال المدينة وهو موقف الحضر أو أعيان المدينة، ونتيجة لهذا الشرخ اتبع الاستعمار سياسة فرق تسد ليستأثر بالمدينة وبمنطقة الأوراس عامة ويخضعها للاحتلال ثم ليخضع مجتمع القبائل فيما بعد معلنا بذلك احتلال كامل المجال الجزائري.

أولاً: علاقة مجتمع قبيلة النمامشة الجزائرية بالاستعمار قبل إخضاع منطقة تبسّة

١/١-تسلُّط مجتمع قبيلة النمامشة يمهّد الطريق للتّوسع الاستعماري في تبسّة وأعيان المدينة يطلبون الاحتلال

بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ كان فضاء مجتمع قبيلة النمامشة خارج سيطرة السّلطات الاستعمارية، حيث لم يخضع إقليم تبسّة وفضاء مجتمع قبيلة النمامشة إلى الاستعمار النّهائي إلا بعد ١٨٦٤ بفضل مقاومة مجتمع القبائل المتمثل في قبيلة النمامشة، إذ واصلت بعض فروع هذه القبيلة رفضها الخضوع لسلطة البايات الشّكلية المنظوية تحت سلطة الاستعمار الفرنسي وهو ما دفع بأحمد باي إلى غزوها بتواطؤ من الرّزقي قايد الحنانشة لمّا بلغه تجمّع النّمامشة بقوة تتكون من ١٥٠٠ من المشاة و ٣٠٠٠ من الفرسان في بحيرة الأرنب فباغتهم هناك وتعرّضت دواوير العلاونة والبرارشة إلى النَّهب وفقد النمامشة ٣٠٠٠٠ رأس غنم و٢٠٠ جمل وتمَّ قتل أكثر من ١٥٠ نفرا[١]، غير أنّ النمامشة لم يستسلموا وبعد سقوط قسنطينة بأيدي الجيش الفرنسي فرّت نوبة تبسّة إلى تونس وظلّت المدينة دون قوّة نظاميّة تحميها وتعرّض حضّر تبسّة لهجمات متتالية فتركوا أراضيهم الفلاحيّة فاستولت عليها القبائل على غرار أولاد سيدي يحي بن طالب والنمامشة الذين استولوا على الأراضي الموجودة جنوب تبسّة ومنعوا ما تبقَّى من حضر المدينة من الذّهاب إلى أراضيهم، كما كانت القوافل تتعرّض للسّطو ووصل الأمر إلى حصول عمليّات قتل.

في ظل هذه الظروف الصّعبة والخطيرة التي يعيشونها والاعتداءات المتكرّرة من قبل مجتمع القبائل المتمثل في النمامشة[٢] اجتمع أعيان تبسّة واقترحوا تكوين وفد للذّهاب لتقديم طلب للفرنسيين للحلول محلَّ الأتراك الذين ضعفت سلطتهم أمام قوّة سلطة مجتمع القبائل وعدم قدرتهم على توفير الأمن والاستقرار، فسافر وفد من أولاد سيدي يحي بن طالب وأعيان المدينة بتاريخ ١٩ ماي ١٨٤٢ وقابل قائد مقاطعة قسنطينة الجنرال دو نيقريي De Négrier في معسكر متمركز بعين بابوش بإقليم الحراكتة ليعلنوا ولاءهم للاحتلال الفرنسي، وألَحَّ الوفد على ضرورة تنصيب قوَّة فرنسيّة لحفظ النظام في المدينة[٣]، وهو ما يعني أن الجيش الفرنسي سيجد ظروفا ملائمة لمواصلة توسّعه الاستعماري وأن مجتمع القبائل ومنه النّمامشة ساهم من حيث لا يشعر في احتلال تبسّة من خلال ممارساته وتجاوزاته تجاه حضر المدينة. هذه الممارسات هي التي دفعت بأعيان تبسة إلى تفضيل الاستعمار الفرنسي خاصّة وأن السّلطات العثمانية ومن خلالها البايات كانت ضعيفة وغير قادرة على توفير الحماية والأمن.

تعكس هذه الأحداث العلاقات المتوتّرة بين مجتمع القبائل في تبسّة وبين حضر المنطقة، وقد استغلت القوى الاستعمارية هذا الصّراع لتحقق أهدافها الاستعمارية في المنطقة ساعية قدر المستطاع إلى مزيد إذكاء هذا التوتر لا فقط بين المدينة والقبيلة، ولكن أيضًا بين فروع القبيلة. كما ساهم أحد التونسيين من مدينة الكاف يدعى محمد بربوش في تسريع التّحرك الاستعماري نحو تبسّة من خلال حلوله بالمدينة وفرض غرامة ماليّة ثقيلة على سكّانها باسم باي تونس وهو ما أثار مخاوف الأهالي هناك.

وهكذا أصبحت الظروف ملائمة للجيش الفرنسي لمواصلة توسّعاته دون خسائر في صفوفه ليتحرّك الجنرال دو نيقريي De Négrier في اتجاه المدينة يوم ٢ جوان ١٨٤٢[٤] ليدخل الجيش الفرنسي إلى تبسّة دون مقاومة تذكر وهو ما يؤكده تقرير الجنرال المذكور الذي أرسله إلى الحاكم العام حول حملته على تبسّة والتي جاء فيها ما يلي: "... بعد مسيرة ١٢ فرسخًا على الأقل وصلتُ حوالي الساعة الخامسة مساء أمام أسوار تبسة التي دخلتها فرقنا حوالي الساعة السابعة وأطلقت سبع طلقات من المدفعية إيذانا برفع العلم الفرنسي على القلعة الرومانية العتيقة، وكنت سعيدا سيّدي الحاكم العام بأن عمليتي تمت دون الحاجة الى إطلاق رصاصة واحدة، وقد جاء اليَّ على بعد فرسخين من المدينة وفد متكون من علماء وأعيان على رأسهم القاضي والقايد وهم يحملون أعلام مساجدهم طالبين الأمان... جاء الكراغلة ومعهم أبناؤهم إكراما وولاء... وترك الخوف وهول المفاجأة عند رؤية جنود (نا) لأول وهلة مكانه للثقة والاطمئنان، ومن الغد استأنف كل واحد عمله العادي وفتحت المحلات أبوابها بصفة عادية... منذ الفاتح جوان تكفّلتُ بتنظيم البلاد بعناية واتخاذ القرارات الضرورية، وقد جمعت من حولي أعيان تبسة وأولاد يحي بن طالب والنمامشة...وبعد أن تحدثوا مطولا عن أهمية بلادهم، ذهبت لزيارة تبسّة بدعوة منهم فالقوّني عند بابها وحيوني بأعلامهم، وقدموا لي مفاتيح المدينة التي استلمتها باسم الملك"[٥].

لابدّ من الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الشّهادة هي لجنرال في الجيش الفرنسي مُكلَّف بتحقيق المصالح الاستعمارية والمتمثّلة في إكمال عمليّات التّوسع الاستعماري في كلّ الأراضي الجزائرية وإخضاع المناطق الرّافضة على غرار فضاء النمامشة لاسيما تبسّة، فيمكن إذن أن تكون هناك مغالاة في هذه الشّهادة، فما يَهُمُّ الجنرال دو نيقريي هو إبلاغ القيادة العامّة – ما تريد أن تسمعه – وهو النّجاح في المهمّة ولا أظن أنّه وجد الطريق معبَّدة بالشكل الذي يرويه في رسالته إلى القيادة العامَّة وهو ما ستبيّنه الأحداث لاحقا لاسيما المقاومة الشّرسة التي ستُظهرها قبيلة النمامشة، ناهيك أن تبسّة التي خضعت حسب شهادة الجنرال المذكور في ١٨٤٢ بهذه السّهولة سوف لن تسقط فعلا في أيدي المستعمر إلا بعد أربعة سنوات أي ١٨٤٦، وهو ما يفنِّد هذه الرّواية التي يبدو أن الجنرال بالغ فيها لإظهار قوّته أمام القيادة العامَّة خاصة وأن هناك مبالغة في وصفه لعمليّة الإخضاع حيث يقول في نفس الرِّسالة متحدِّثا عن إمام قرية بكّاريا القريبة من تبسّة: "... ولاثبات حسن نيته أهدى لي عسلا وغزلان، أي الطعام الأحلى والحيوان المسالم في هذه البلاد"[٦]، ربّما كان يقصد بعض النمامشة دون التّعميم خاصّة وأنّه استدرك في حديثه قائلا:" لم يتصل بنا أيّ واحد من أولاد العيساوي وهم فرقة من العلاونة ولا من أولاد رشاش... لإعلان الولاء والطاعة"[٧].

كما تحدّث الجنرال – في تناقض مع خطابه الأول – عن مواجهات تعرّضت لها القوات الفرنسيّة في إقليم تبسّة "... وقد عرفت فيما بعد بأن الفرسان الذين هاجموني كانوا من العلاونة (قبيلة من النمامشة)". كما أقرَّ الجنرال أن تبسّة "أصبحت ضمن نفوذنا، ولكن إعلان استلامها رسميًا من قبل قوّة فرنسية لم يتم بعد، وينبغي قبل اتخاذ مثل ذلك القرار أن نضع في الحسبان قبائل المناطق المجاورة"، فيبدو أنّ الجنرال أدرك صعوبة إخضاع مجتمع القبائل على عكس سكّان الحضر في مدينة تبسّة، وربّما يقصد خضوع بعض الأفراد من النمامشة وهو ما وضّحه لاحقًا عندما تحدّث عن استسلام الحسناوي بن بلقاسم سرّا، والسّيطرة على النمامشة ووضعهم تحت قيادتين ولكن سنة ١٨٤٦.

٢/١ المقاومة القبَليّة المسلَّحة والهجوم المباغت وعرقلة إخضاع تبسّة

بعد إخضاع مدينة تبسّة وتسلّم الجنرال دو نيقريي مفتاح المدينة دون مقاومة باعتبار أنّ أعيان وأهالي المدينة هم من استنجدوا بالقوّات الفرنسيّة كما سبق وأن بينا – أشار هذا الجنرال إلى غياب قبيلة النمامشة عن إعلان الطّاعة حيث يقول: "لم يتصل بنا أي واحد من اولاد العيساوي وهم فرقة من العلاونة ولا من اولاد رشاش...لإعلان الولاء والطاعة..."[٨]. ما نلاحظه من خلال هذه الشّهادة – التي لا يمكن الاعتداد بها أو على الأقل تنسيبها باعتبارها شهادة جنرال يرغب في كسب رضاء القيادة العامّة ويريد أن يبيّن قوّته وشجاعته لرؤسائه، فهي شهادة جنرال مكلَّف بمهمّة وبالتّالي يجب إظهار نجاح مهمّته وتجاهل العراقيل إن وجدت- ما نلاحظه هو غياب العرش الثالث للنمامشة ألا وهو البرارشة حيث لم يَرِدْ ذكرهم في الرّواية ولسنا ندري هل هو سهو من المتحدّث أم أنّه تم إخضاعهم وأعلنوا ولاءهم للجنرال وللقوات الفرنسيّة، وتعني هذه الشهادة عدم رضاء من عرشي النمامشة أي من أغلبية القبيلة عن تسليم مفاتيح المدينة للجنرال دو نيقريي وخضوع المدينة، وهو ما يعني ضِمنيًا إعلان المقاومة – مقاومة مجتمع القبائل – باعتبار أن أهالي المدينة هم مَنْ استنجدوا بالفرنسيين خوفًا من مجتمع القبائل الذي كان يمارس حالات الإغارة، وبالتّالي يحيلنا ذلك توتر العلاقات بين مجتمع القبائل ومجتمع المدينة خلال القرن التاسع عشر وهو ما تؤكّده حادثة واد شبرو.

فماهي أطوار هذه الحادثة؟ وما هي نتائجها؟

بعد ضمان ترحاب أهل تبسّة و تسلّمه مفاتيح المدينة القديمة كرمز للإخضاع غادر دو نيقريي المدينة في اليوم الموالي ٣ جوان ١٨٤٢ متّبِعًا طريق مسكيانة فتعرضت قواته إلى هجوم مباغت من قبل عدد كبير من الفرسان الذين كانوا متمركزين في جبل كراديد (في جبل الدير) ودارت بين الطرفين مواجهات بالبارود أسفرت عن انتصار للقوّات الفرنسيّة وتبيّن فيما بعد حسب شهادة دو نيقريي أن المهاجمين هم من عرش العلاونة من قبيلة النمامشة، وبقطع النّظر عن المعركة غير المتكافأة فإنها تدل على إصرار مجتمع القبائل المتمثل في قبيلة النمامشة أو على الأقل جزء منها على المقاومة، ولكن نلاحظ عدم وحدة بين العروش الثلاث ففي هذه الحادثة مثلا حضر فقط عرش العلاونة، كما يتواصل غياب البرارشة عن العمليَّات.

وفي جوان ١٨٤٥ نصب النمامشة كمينا لمرابط خنقة سيدي ناجي وقتلوا إبنه واستولوا على أموال الضَّريبة التي جمعها وكان في طريقه لتسليمها للجنرال بيدو Bedeu الذي كان في حملة على الأوراس، ولم يكتف النمامشة بهذه العمليّة بل قاموا بعمليّات أخرى في الزّاب الشَّرقي قبل أن يستسلموا مع قرب فصل الشتاء وتَهيُّئِهم للنّزول إلى الصَّحراء التي لا يوجد فيها أماكن يمكن الاحتماء بها وطلبوا العفو وقبلوا بشروطه وإرجاع الأموال والحيوانات التي غنموها (حوالي ٥٠٠٠٠ فرنك) وقدَّموا رهائن كذلك، كما تمّ تعيين سي أحمد بن الحاج بن علي بن قيدوم قائدا عليهم بطلب منهم.

نلاحظ أن تمرّد ومقاومة النّمامشة للاستعمار الفرنسي من ١٨٤٢ إلى ١٨٤٥ مرتبط بفصل الصَّيف عندما يحتمون بالجبال وتضعف هذه المقاومة عندما يأتي الشتاء ويحتمي النمامشة بالصّحراء حيث تكون إقامتهم مكشوفة للعدو، فالمقاومة هي إذن ظرفية وفصليّة مرتبطة بعوامل مناخيّة. غير أنّ خضوع تبسّة لم يكن تامّا لذلك فكَّر المستعمر في حملة عسكرية تُخْضِعُ كامل منطقة تبسّة وكان ذلك في ٢٩ ماي ١٨٤٦، حيث وصل الجنرال راندون المدينة صُحْبَة الفيلق ٣١ ومن الفيفي الأجنبي من الفيلق الخامس للهوصارة Hussards 5(ème) ومن الصبايحيَّة وأمكن له إخضاع قبيلة أولاد يحي بن طالب ثم واجهت القوات الفرنسيَّة معركة بين التونسيين في المنطقة بقيادة جيرار بالقرب من الماء الأبيض شرقي بحيرة الأرنب شارك فيها العلاونة والبرارشة وكانت هذه الحادثة بداية لإخضاع النّمامشة وإنزال عقوبات قاسية عليهم.

ما نلاحظه في هذه الحادثة ظهور البرارشة كقوة مقاومة وهي التي غابت في الأحداث السَّابقة مع تواصل غياب وحدة العروش الثلاث في المقاومة، حيث رصدنا العلاونة والبرارشة فقط وغاب عرش أولاد رشاش الذين نظّموا هجومين في أكتوبر ونوفمبر ١٨٤٦ على

خنقة سيدي ناجي، وهو ما جعل الجنرال بيدو Bedeu قائد المقاطعة يقرّر وضع حدّ لتمرّد النمامشة، هذا التَّمرّد الموزّع بين العروش وليس موحّد، فوجّه لهم في مارس ١٨٤٧ ثلاثة جيوش:

- الأول تحت قيادة الكولونيل صوني Sonnet الذي خرج من بسكرة وسار بموازاة السّفوح الجبلية المحاذية للصَّحراء.
- الثاني بقيادة الجنرال هربيون Herbillon الذي إنطلق من باتنة.
- الثالث بقيادة الكولونيل سينيلاس Senilhes الذي جاء من عنَّابة[٩] .

وكانت الغاية من هذا الهجوم الكبير ومن العديد الواجهات محاصرة مجتمع قبيلة النمامشة من كل الجهات لإخضاعها نهائيّا وهو ما يدلّ على قوّة مجتمع القبائل وشراسة مقاومة قبيلة النمامشة، غير أنّ الجيش الفرنسي جوبه بمنطقة خالية من السّكان حيث غادر جميع أفراد القبيلة المكان[١٠]، إلا أنّ الحصار الذي تعرّضت له القبيلة ونهب زراعتهم وغلق كلّ المنافذ أمامهم جعلها تتقهقر، حيث تذكر المصادر إبلاغ العلاونة والبرارشة الكولونيل بالاستسلام وكذلك فعل أولاد رشاش مع الجنرال قائد الجيش الفرنسي بباتنة وهو ما شجع القوات الفرنسية على المُضي قُدُما في سياسة تفكيك القبيلة وتشتيت قوّتها وذلك بوضعها تحت قيادتين:

- قيادة النمامشة الغرابة وتحتوي على أولاد رشاش على رأسهم القايد أحمد بن الحاج التي أُلحقت بحوز بسكرة.
- قيادة النمامشة الشراقة: تضم العلاونة والبرارشة وألحقت بفرع عنَّابة.

بيد أن ذلك لم يقضِ على مقاومة مجتمع القبائل المتمثّل في قبيلة النمامشة نهائيّا حيث وبعد هذا التّقسيم والإخضاع الوقتي وبعد مغادرة الكولونيل سينيلاس في اتجاه عنَّابة، بادر أولاد رشاش بالهجوم على أهالي خنقة سيدي ناجي ونهبوا منها قرابة ٢٠٠٠ رأسًا من الغنم، وتواصلت إغارات النمامشة في سنوات ١٨٤٧ و ١٨٤٨ و١٨٤٩ أي بعد إخضاع تبسة ممَّا دفع بالجنرال الجديد سانت أرنو إلى تنظيم حملة ضدّ النمامشة في ١٨٥٠ قادها الكولونيل إينار Eynar جابت فم قنتيس ثم الشريعة أين تعرّضت إلى كمين نصبَّه العلاونة والبرارشة في خوانق أوكس ودارت مواجهة إنتهت لصالح الجيش الفرنسي وأجبر النمامشة على دفع مؤخّر الضّريبة التي عليهم، وأعيد – في إطار سياسة تفكيك مجتمع القبائل – تنظيم القبيلة إداريا حيث أُلحق أولاد رشاش بفرع عنَّابة بعد أن كانوا تابعين لفرع باتنة وعُيِّنَ الشيخ الحسناوي قايدا على كامل قبيلة النمامشة.

غير أن النَّزعة الاستقلالية ظلت تحكم هذه القبيلة التي لم تصمد طويلا في خضوعها حيث وبمجرّد مغادرة القوّات الفرنسيّة هاجم النمامشة زمالة قايدهم الحسناوي وقتلوا ابنه وابن أخيه ويبدو أنّ الهجوم كان بمثابة رسالة لكلّ من يتعاون مع السّلطات الاستعمارية. ظلّت الأوضاع تتأرجح بين الإخضاع المؤقّت للنمامشة والعودة إلى الاستقلالية من جديد إلى سنة ١٨٥١ عندما تمَّ احتلال تبسّة رسميّا وتمَّ تعيين ثلاثة قياد على النّمامشة وهم كالآتي:

اسم العرش	عرش العلاونة	البرارشة	أولاد رشاش
القايـــــد	الحفصي بن أحمد علي	علي بن محمّد	بن علي بن رجب

نلاحظ أنّه لأوّل مرّة – وفي إطار مواصلة تثبيت سياسة التفكيك والإضعاف – يتمّ تعيين قايد على كل عرش من العروش الثّلاث وذلك في إطار تطبيق سياسة فرّق تسد، ففي السَّابق كان يتمّ تعيين قايد على كامل قبيلة النّمامشة، في انتظار مزيد تفكيك القبيلة إداريّا بتوزيع عروشها بين تبسّة وخنشلة في مرحلة قادمة.

فروع عرش البرارشة وعدد الخيام والمشايخ

الفروع	عدد الخيام	عدد المشايخ
الزرادمة	٤٠٠	٢
أولاد محبوب	١٥١	١
بني أسيد	٣٦٠	٢
أولاد احميدة	٣٢٠	١

فروع العلاونة وعدد الخيام والمشائخ

الفروع	عدد الخيام	عدد المشائخ
أولاد شامخ	١٠٠	١
الزرادمة	٣٠٠	١
أولاد ساعد وأولاد العمرة	٣٢٠	١
اجّلامدة واجّدور	٧٧٠	٢

فروع أولاد رشاش وعدد الخيام والمشائخ

الفروع	عدد الخيام	عدد المشايخ
أولاد زايد	٨٠٠	١
أولاد نابت	٥٠٠	١
المقادّة	٤٢٠	١

ما نلاحظه من خلال هذه الجداول أنّ عدد المشايخ لا يخضع لعدد الخيام فبني أسيد من فرع البرارشة مثلا عدد خيامهم ٣٦٠ خيمة يقابلها مشيختين، بينما عدد خيام فرع أولاد زايد من عرش أولاد رشاش ٨٠٠ خيمة ويتمتّعون بمشيخة وحيدة، فهناك إذن مقاييس أخرى لإسناد المشايخ لكلّ فرع. رغم سياسة التّفكيك ورغم الهزائم التي مُنيت بها قبيلة النمامشة إلاّ أن الأوضاع ستتواصل متوتّرة بين القوّات الفرنسيّة والنمامشة، حيث وفي سنة ١٨٥٤ جدّت معركة ضدّ البرارشة والعلاونة في مرتفعات تاسبنت خسرها عرشي النمامشة الذين انسحبا من المعركة تاركين وراءهم خسائر بشريَّة وغنائم، غير أنَّ هذه الهزيمة لم تؤمِّن الدَّفع المنتظم للضّرائب من قبل مجتمع عروش النمامشة. كما حاصرت القوات الفرنسيّة أولاد رشاش في ١٨ جويلية من نفس السّنة وأعلنت عليهم الحرب وأجبروا على القبول بدفع الضّريبة وإظهار الرّغبة في الإذعان.

نتيجة لإجراءات الحصار والتتبّع والمنع من دخول الأسواق والتزوّد بالحاجيات الأساسيّة خاصّة مع تزامن ذلك بقرب بداية فصل الشّتاء – وهو ما يعني التّوجه إلى الصّحراء وهنا نلاحظ أن ضعف النمامشة يتزامن دائما مع حصارهم ومنعهم من الاتجاه نحو الصّحراء خلال فصل الشتاء، وقد أدركت القوات الفرنسية ذلك وبدأت في استعمال هذه الورقة التي عادة ما تُذعن النمامشة وتجعلهم يقبلون بدفع الضّريبة بل وتعويض الضّرائب المتخلّدة بذمتهم وإعلان الطاعة ولو مؤقّتا نظرا لكون المنع من الذّهاب إلى الصحراء يؤدي إلى هلاك القطعان التي لا تتحمل الصّقيع والثلوج وهي مصدر عيشهم ورزقهم، علاوة على الزّراعة – تدهورت أوضاع عرش أولاد رشاش الذين سعوا سنة ١٨٥٧ لطلب المساعدة من باي تونس الصّادق بن حسن والذين أجبروا على قبول شروط الحاكم العام بل طلبوا العفو في ديسمبر ١٨٥٧ وكان لهم ذلك من خلال دخول ١١٠٠ خيمة من العرش تحت السّلطة الفرنسيّة وهو ما يعني دفع الضّريبة أهم شرط للبرهنة على الولاء والطاعة، لذلك دفعوا ١٤٠٠٠ فرنك ضريبة حرب على أن يتمَّ دفع بقية الضّرائب المتخلّدة بذمّتهم لاحقا، ولضمان ذلك تلتجأ السّلطات الفرنسيّة كالعادة إلى أخذ رهائن من العرش لديها وعادة ما يكونون من ذوي الشّأن لدى الفرع وهي سياسة تتّبعها السّلطات الفرنسيّة لضمان خلاص بقيَّة الضّرائب على مراحل باعتبار عجز الفروع والعروش على خلاصها دفعة واحدة، وفعلا تمكّن أولاد رشاش من تسديد ما عليهم من ضرائب سابقة على امتداد سنتين والتي قدّرت بـ٤٤٥٠٠ فرنكا[١١]، كما تمَّ تقييدهم بحدود إقليمية لمراقبة تحرّكاتهم وتمَّ تنظيمهم تحت رئاسة القايد محمد الصّغير بن عبد الواحد بثماني مشيخات كالتالي:

العروش	عدد المشيخات	العشائر
أولاد زايد	١	----------
أولاد سليم	١	----------
أولاد نابت	١	أولاد زيتون
	١	أولاد عاشور وأولاد الحاج
	١	كياتة
مقادّة	١	أولاد سي ثابت وأولاد بلقاسم بن علي
	١	أولاد مومن وخنادجة وأولاد أحمد بن علي
	١	أولاد نصر

نستنتج دائمًا نفس الاستنتاج وهو عدم وحدة فروع قبيلة النّمامشة الثّلاث في المقاومة وكذلك في الخضوع، حيث تتعامل السّلطات العسكريّة الفرنسيّة مع كلّ فرع على حدة في المواجهة أو مع فرعين متّحدين ولم تسجّل لنا الوثائق إلى حدّ الآن وِحْدَة بين الفروع الثلاث المكوّنة للنمامشة. كما نستنتج أنّ عمليّة الخضوع مرتبطة بظرفيّة معينة وفصليّة وهي قدوم فصل الشّتاء وحاجة أولاد رشاش التّوجه إلى الصّحراء وهو ما يعني أن عمليّة الخضوع والقبول بشروط السّلطات العسكرية الفرنسيّة يمكن أن تُقَوَّضَ بمجرَّد انتفاء الأسباب (خروج الشتاء) وهو ما انتبهت إليه السّلطات العسكريّة الفرنسيّة التي سمحت لأولاد رشاش بالتّزود من الأسواق ولكن تحت رقابة الإدارة حتّى لا يلتجؤوا إلى تخزين المؤن في الصّحراء نظرا لكون تزوّد أولاد رشاش بما يلزمهم من الحاجيات الأساسيَّة يمكن أن يؤدِّي إلى عودة التمرد على السلطات الفرنسية من جديد.

وكبرهنة على حسن نيّتهم – ولو ظاهريا – تجاه الاتفاق الحاصل مع السّلطات العسكريّة الفرنسيّة تجاهل أولاد رشاش طلبات الباي الصّادق بن حسن الذي أعلن الحرب على فرنسا من خلال حثّ الشيوخ والأعيان والقبائل على التمرّد، وفي تلك السّنة لم يبق من المتمرّدين في صفوف النمامشة سوى ٢٣٩ فردا كلّهم من فرع العلاونة، وهو ما يؤكد لنا استنتاج عدم وحدة وعدم تنسيق بين كل أفراد قبيلة النمامشة وهي خاصيّة في كل مجتمعات القبائل في بلاد المغرب.

ثانيًا: انعدام وحدة العروش في المقاومة سهل عملية القضاء على مجتمع النمامشة ومجتمع القبائل يكتفي بالدفاع عن تبسّة

١/٢-إستراتيجية تفكيك بنية مجتمع قبيلة النمامشة

انتهجت السّلطات الاستعمارية الفرنسيّة في الجزائر عامّة وفي مجال مجتمع قبيلة النمامشة خاصّة إستراتيجيًا استعمارية تهدف إلى اجتثاث القبائل وتفكيك بنيتها في إطار سياسة إضعاف مجتمع القبائل الذي أظهر مقاومة عنيفة للوجود الاستعماري مقابل الموقف المهادن الذي تبنّته المدن والقرى خاصّة في فترة ما بين ١٨٣٠ تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر و١٨٧١، حيث يذكر بيار بورديو أنّ القبيلة كانت: "روح المقاومة" ونواتها الصّلبة وهو ما سنراه مع قبيلة النمامشة، وهو ما دفع بالمستعمر إلى تجنيد كل آليَّات الإخضاع والهيمنة العسكريّة والإداريّة والقانونيّة لاجتثاثها وتدمير هياكلها[١٢]، خاصّة بعد قانون التّوطين لسنة ١٨٥٦ وسعي الإدارة العسكريّة الفرنسيّة بالجزائر في بداية الاحتلال إلى إدخال تغيير شامل على شكل الاستقرار الاجتماعي وإعادة تركيب المجتمع الجزائري[١٣] الذي كان مجتمع قبائل في القرن التاسع عشر.

وقد كانت قبيلة النمامشة مثلها مثل بقية القبائل في الجزائر مستهدفة بعمليَّة التفكيك وتهديم البنية القبليّة، حيث قَسَّمت السّلطات الاستعمارية مجتمع القبائل بالجزائر – لاسيما القبائل ذات الأحجام الدِّيمغرافية الكبرى على غرار النمامشة – إلى وحدات إداريّة صغيرة محدودة العدد تراوحت بين ثلاث أو أربع مجموعات لكل قبيلة وتمَّت تجزئة هذه المجموعات إلى دواوير مع عدم مراعاة التّجانس البشري مثل ما سيحصل لقبيلة النمامشة التي خضعت بدورها إلى إستراتيجيّة التّفكيك وإعادة التّركيب بما يخدم مصلحة السّلطات الاستعمارية، إذ تم تجزئتها إلى مجموعات منفصلة عن بعضها البعض مجاليّا وإداريّا وإلحاق بعضها بدوائر إداريّة مختلفة بعد مصادرة أراضيها والحجز على الجزء الكبير من ثرواتها[١٤]، وفي هذا الإطار تمّ سنة ١٨٤٦ – وهي سنة إخضاع كامل تبسّة والمناطق المجاورة لها بما في ذلك فضاء مجتمع قبائل النمامشة– تشتيت القبيلة ووضعها تحت قيادتين:

- قيادة النّمامشة الغرابة وتضمّ أولاد رشايش وعلى رأسها القايد أحمد بن الحاج وألحقت بحوز بسكرة فرع باتنة.
- قيادة النمامشة الشّرقية وتضمّ العلاونة والبرارشة والتي ألحقت بفرع عنّابة.

وفي مرحلة لاحقة تمّت المحافظة على تبعيّة عروش العلاونة والبرارشة إلى دائرة تبسّة بينما فصل عرش أولاد الرشايش عن قبيلة النمامشة في تبسّة وألحق إداريّا بدائرة خنشلة[١٥].

ويبدو أنّ هذا التّقسيم لم يرض الفرنسيّين حيث أكّد الضّابط العسكري ريشارد Richard سنة ١٨٤٥ على ضرورة فصل الدواوير عن بعضها البعض عبر الحواجز الطبيعية كالغابات والجبال والأودية، كما اقترح ضرورة حفر خنادق حول كلّ زمالة وإحاطة هذه الخنادق بطوابي من التّين الشّوكي[١٦] أثناء الاحتلال وأيضًا بعد الاستقلال. وقد اضطلع القائد العسكري ألّقرو (Allegro)[١٧] بهندسة تقسيم قبيلة النمامشة وتفكيك بنيتها التّنظيمية والمجالية، وقد ترتّب على ذلك فصل العروش عن بعضها البعض وظهور ثلاث مجموعات كبرى قسّمت بدورها إلى العديد من الفرق[١٨] وهو ما تبيّنه الجداول الآتية:

المكونات الديمغرافية لعرش البرارشة التابع لدائرة تبسّة

أسماء الفرق وعددها والقايد المشرف عليها	عدد الخيام	عدد المشائخ
الزّرادمة	٤٠٠	٢
أولاد محبوب	١٥١	١
بني وساید	٣٦٠	٢
أولاد صميدة	٣٢٠	١
القايد: علي بن محمد بن عبد الواحد	---	---
العدد الجملي للخيام والمشائخ	١٢٣	٦
	١	

المصدر: الماجري (الأزهر)، القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ١٨٣٠ – ١٨٩٠ مسار التفكك وآليات المقاومة، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، ٢٠١٣، ص ٩٣. نقلاً على:

- Castel (P), **Tébessa**, T 2, pp 103-107.

المكونات الديمغرافية لعرش العلاونة التّابع لدائرة تبسّة

أسماء الفرق وعددها والقايد المشرف عليها	عدد الخيام	عدد المشائخ
أولاد شامخ	١٠٠	١
الزّرادمة	٣٠٠	١
أولاد سعد وأولاد المرة	٣٢٠	١
الجلامدة والجدور	٧٧٠	٢
قايد العرش: محمد الحفصي بن أحمد		
العدد الجملي للخيام والمشائخ	١٤٩٠	٥

المصدر: الماجري (الأزهر)، القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ١٨٣٠ – ١٨٩٠ مسار التفكك وآليات المقاومة، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، ٢٠١٣، ص ٩٤. نقلا على:

- Castel (P), **Tébessa**, T 2, pp 103-107.

المكونات الديمغرافية لعرش أولاد الرشايش التّابع لدائرة خنشلة

أسماء الفرق وعددها والقايد المشرف عليها	عدد الخيام	عدد المشائخ
أولاد زايد	٨٠٠	١
أولاد ثابت	٥٠٠	١
مقادَّة **Mgadda**	٤٢٠	١
القايد: علي بن رجب		
العدد الجملي للخيام والمشائخ	١٧٢٠	٣

المصدر: الماجري (الأزهر)، القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ١٨٣٠ – ١٨٩٠ مسار التفكك وآليات المقاومة، المغاربية للطباعة والاشهار، تونس، ٢٠١٣، ص ٩٤. نقلا على:

- Castel (P), **Tébessa**, T 2, pp 103-107.

أدّت سياسة إنشاء الدواوير وحصرها ضمن مجال جغرافي محدّد إلى تفتيت ملكيّة القبيلة وانتزاعها منها، وقد ساهمت هذه السّياسة الاستعمارية في انحلال المنظومة العقّاريّة والاجتماعية التي يرتكز عليها مجتمع القبائل في الجزائر خلال القرن التّاسع عشر ممّا سهّل عمليّة استيلاب أراضي السّكان سواء عن طريق البيع والشّراء أو المصادرة، وهي إستراتيجيّة انتهجتها السّلطات الاستعمارية لتفكيك منظومة المجتمع القبلي ومنها قبيلة النمامشة وإزالة الحواجز أمام عمليّات بيع وشراء العقّارات وتسهيل انتقال الملكيّة للمعمّرين[١٩].

٢/٢-الضّرائب وسعى السّلطات الاستعمارية إلى تفقير مجتمع قبيلة النمامشة

لم يكتف المستعمر باتّباعه لسياسة الاجتثاث الجماعي للقبيلة وإضعافها، بل خضعت قبيلة النمامشة الجزائريّة خلال القرن التّاسع عشر بفروعها الثلاث (فرعين في دائرة تبسّة وفرع في دائرة خنشلة) إلى سياسة التّفقير والتّهميش من خلال العديد من الإجراءات على غرار الضّرائب "غرامات حرب وضرائب باهظة كانت فوق طاقتهم"[٢٠] التي شُرِع في جمعها منذ ١٨٥٢، حيث دفعت أعراش هذه القبيلة منذ ١٨٥٣ – أي قبل إخضاع إقليم تبسّة نهائيّا من طرف السّلطات الاستعمارية الفرنسية سنة ١٨٦٤ – العديد من الضّرائب وهو ما يبيّنه الجدول الآتي:

قيمة الضّرائب التي دفعها عروش قبيلة النمامشة الجزائرية في منتصف القرن التّاسع عشر

البرارشة (دائرة تبسة)	العلاونة (دائرة تبسة)	أولاد رشايش (دائرة خنشلة)
١٥٠٠٠ فرنكا	١١٩٠٠ فرنكا	١٠٩٠٠ فرنكا

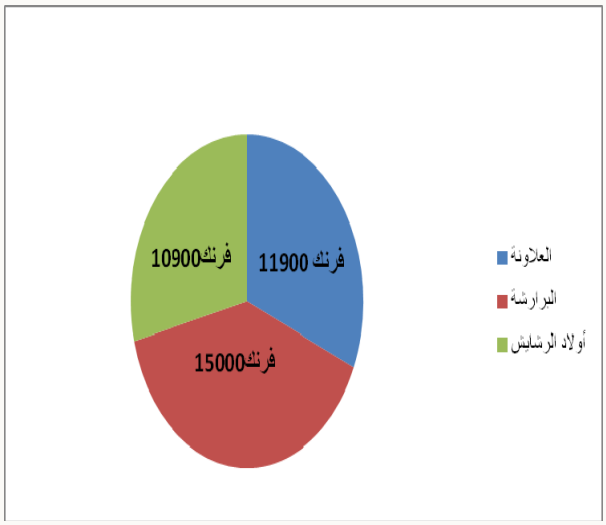

غير أنّ ذلك لا يعني أنّ كلّ الأعراش خضعت لدفع كلّ ما عليها من الضّريبة وهو ما يبيّنه النّقيب ألّيقرو سنة ١٨٥٣ في الرّسالة الآتية التي جاء فيها ما يلي: "...تعتبر الأعراش التي دفعت ما عليها ملتزمة شيئا ما تجاهنا بالقياس مع مثيلتها غير الخاضعة، ولم تدفع في الواقع غير حقوق الرعي وهي حقوق كانت تدفعها في العهد التركي، لزراعة بعض المساحات وللتجارة مع العشائر غير الخاضعة، وهي لا ترضى أبدا بالخضوع لسلطتنا وإدارتنا".

تكشف لنا رسالة ألّقيرو عن ضريبة جديدة وهي ضريبة حقوق الرّعي وهو ما يحيلنا على محاولة السّلطات تفقير وإضعاف مجتمع قبيلة النمامشة المعروف بشراسته أو مشاغبته وعدم الرِّضى بالخضوع ، حيث يؤكّد القائد بونفالي Bonvalet الذي خلف النّقيب ألّيقرو أنّ البرارشة قد دفعوا ما عليهم من ضرائب بينما لم يدفع العلاونة وأولاد الرشايش أكثر من خُمُسِ ما عليهم من ضرائب، ويقترح اضطلاع سرايا الجيش الثالث من قنّاصة إفريقيا المُستَقدَمة من عين البيضاء بمهمّة تحصيل الضّرائب من هؤلاء بالقوّة وإنزال أقصى عقوبة بهم لكسر شوكتهم، وهو ما يدلّ على أهمّيّة الضّرائب بالنسبة للسلطات.

خرج الجيش الفرنسي لإخضاع العرشين الرّافضين في ٢٢ جوان ١٨٥٤ وأعلن الهجوم على عرش العلاونة بفرق السبايس والقوم وعلى عرش البرارشة بالفرق العسكريّة الأخرى وتمّ الاستيلاء على ١٢٠٠٠ رأس من الماشية وعنائم أخرى مختلفة، غير أنّ هذا الهجوم لم

يُؤَمِّنُ الدّفع المنتظم للضّرائب من القبيلة فليس من السّهل إخضاع مجتمع القبائل إخضاعًا نهائيًا.

٣/٢-مصادرة الأراضي والتّجويع الجماعي لمجتمع قبيلة النمامشة وردود فعل القبيلة تجاه عنف السلطة الاستعماريّة

لم تكتف الإدارة الاستعمارية بفرض الضّرائب على مجتمع القبائل في الجزائر خلال القرن التّاسع عشر وتقسيمه وتفتيته إداريًا لإضعافه بل صادرت أراضيه، حيث شملت عمليّة المصادرة ٣١٣ مجموعة قبليّة فقدت على إثرها سبع قبائل أكثر من ٣٠ ألف هكتار من أراضي الرّعي التي تمّ ضمّها إلى أملاك الدّولة، كما فقدت عديد القبائل ٣٠٠ ألف هكتار من الأراضي الزّراعية، كما تمّ اغتصاب ٥٤٤٦١ هكتارا انتزعت من ١٧٧٨ مالكا[٢١]، وكانت قبيلة النمامشة ضمن القبائل التي تعرّضت أراضيها للمصادرة، بل سلكت الإدارة الاستعمارية سياسة عنف مُمنهج تمثل في التّجويع الجماعي وسياسة الأرض المحروقة بإتلاف المحاصيل ومصادرة المواشي وهو ما تؤكّده شهادة أحد الضباط الفرنسيين الكولونيل روبن Robin التي جاءت فيها ما يلي: "لقد خلفنا في طريقنا حريقا مهولا، جميع القرى التي تعد حوالي مائتي قرية قد أحرقت، وجميع البساتين بما فيها من أشجار مثمرة قطعت"[٢٢].

لم تبق قبيلة النمامشة مكتوفة الأيدي تجاه الممارسات الاستعمارية الرّامية إلى تفقيرها وتفكيك بنيتها بل سعت بكل الطّرق إلى التّصدّي لها من خلال رفض الأغلبيّة من أفراد القبيلة دفع الضّرائب، حيث تُشير الوثائق إلى أنّ قبيلة النمامشة مجتمعة بعروشها الثلاث لم تدفع أكثر من ربع ما هو مطلوب منها أي ١٥٠٠٠ فرنكا، وأن الخاضعين من العلاونة والبرارشة ١٨٠ خيمة فقط هم الذين دفعوا ما عليهم[٢٣]، وحتى بعد الهجوم على العلاونة والبرارشة لم يدفع سوى حوالي ٢٠٠٠ خيمة الضّريبة أي أقل من ثلثي أفراد القبيلة، وكان الثّلث الرّافض من أتباع طريقة الأحباب الدّينية (L'Ordre relegieux des Habab)[٢٤] والتي تَضُمُّ أولاد العيساوي وجزء كبير من عرشي العلاونة وأولاد رشايش الذين خضعت منهم مشيخة وحيدة إلى سنة ١٨٥٣.

مع العلم أن القبيلة كانت رافضة لدفع الضّرائب حتى قبل الاحتلال الفرنسي للبلاد أي منذ العهد التركي حيث يذكر كاستال متحدثا عن جمع الضّرائب خلال القرن الثّامن عشر أن "الذّهاب إلى النمامشة في مهمّة كهذه – يقصد جمع الضرائب- ليس بالأمر الهين، إذ قرروا الامتناع عن دفع الضريبة..."[٢٥]. كما تحدّث عن "عصيان النمامشة"[٢٦] خلال حديثه عن انتصارات الجيش العثماني عليهم سنة ١٧٧٥.

عدد الخيام الخاضعة والرافضة للضرائب في أولاد الرشايش

عشائر أولاد الرشايش	الخاضعون والرافضون من النمامشة
أولاد زايد	خضوع تام
أولاد سليم والخلافنة	٢٧٠ خيمة خاضعة و٣٠ رافضة
المقادّة	٢٤٠ خيمة خاضعة و١٨٠ رافضة
أولاد نابت	١١٠ خيمة خاضعة و١٣٠ رافضة
كياتة	٤٠ خيمة خاضعة و١٠٠ رافضة

نستنتج من خلال هذا الجدول أنّ حوالي نصف خيام عرش أولاد الرشايش رافضة لدفع الضّرائب أي ٤٤٠ خيمة مقابل ٦٦٠ خيمة خاضعة.

وقد كانت الفرق الرّافضة تحكم نفسها بنفسها ولها مجالس من أعيانها تنظر في مختلف المسائل وحتّى الصّراعات التي تنشب بينهم كانت لا تؤثر على وحدتها، وكانوا دائمًا على استعداد لمواجهة الحملات العسكريّة الفرنسيّة، كما كانوا يحافظون على علاقات جيّدة مع القبائل الخاضعة وهو ما عَسَّر عمليّة ضرب بعضهم ببعض وصعَّب تطبيق سياسة "فرِّق تسد" التي تعتمدها السّلطات الاستعمارية مع قبائل البلدان المحتلة، فالنمامشة أدركوا أن قوّتهم في وحدتهم ولو مع القبائل

الخاضعة للاحتلال الفرنسي وهي إستراتيجية ناجحة تُبْعِدُ عنهم شبح الانقسام فمثلا تزوّد مائتي نفر متمرّد من أولاد العيساوي بالمُؤَن من طرف القبائل الخاضعة بعد ١٨٥٩، كما تعتبر القبائل الرّافضة خضوع بقيّة القبائل ظرفيّا وسيلتحقون بالمعسكر الرّافض والمتمرّد من جديد لاسترجاع ما تمّ اغتصابه من قبل السّلطات الاستعمارية.

كما رفض بعض الشّيوخ دفع الضّرائب على غرار شيخ الزرامّة من البرارشة محمد بن الحفصي فكان الردّ من الاستعمار الفرنسي القبض عليه وخلعه من منصبه وكإجراء وقائي – وفي إطار سياسة التفكيك المُمَنهج من قبل السّلطات الاستعمارية – تمَّ تقسيم مشيخته إلى عشيرتين هما أولاد سليمان والفراحنة وعُيِّنَ على رأس كل منها شيخ[٢٧].

كما حاصرت الجيوش الفرنسيّة أولاد رشاش حيث غزت في ١٨ جويلية سرِيَّتان كانتا في جبل تافرنت لإقليم الحراكتة ونهبت دوارين من أولاد رشاش لتلتحق بهما قوّات فرنسيّة من باتنة وسبايس من المكتب الأهلي بتبسّة ثم ثلاث كتائب الأولى تحت قيادة الرّائد بونفالي والثّانية من عين بيضاء تتكوّن من قنّاصة أفريقيا والثالثة من خنشلة، واتّجهت كل هذه القوات إلى فضاء أولاد رشاش، فأدرك النمامشة خطورة الوضع وأعلن أولاد رشاش قبولهم دفع الضّريبة وطلبوا العفو غير أنّ السّلطات الاستعمارية اشترطت إعلان الخضوع التام لقبيلة النمامشة بعروشها الثلاثة وليس عرش وحيد وضرورة التزامها بدفع الضّرائب المتأخِّرة، ودخل الطرفان في مفاوضات لم تأت أكلها ليظلّ الوضع على حاله. بيد أن أولاد الرشاش مُنعوا من دخول الأسواق والحصول منها على حاجاتهم الضّرورية منذ بداية ١٨٥٧ وهو ما أدّى إلى تدهور أوضاعهم.

كما عسكرت قوّات فرنسيّة في نقرين في شتاء سنة ١٨٥٦ فأدرك النمامشة خطورة إمكانيّة غلق منافذ الصّحراء في وجوههم وإجبارهم على قضاء فصل الشتاء في الجبال وهو ما يعني إمكانية القضاء على قطعانهم ليقرّروا قبول شروط الحاكم العام وطلبوا العفو في ديسمبر ١٨٥٧ فكان لهم ذلك ودخلت ١١٠٠ خيمة من أولاد الرشاش تحت السيطرة ودفعوا فورا ١٤٠٠٠ فرنكا ضريبة حرب، كما تسلّمت السّلطات الفرنسيّة رهائن كضمان لإجبار العرش على دفع الضّرائب المتأخّرة مقابل إطلاق سراحهم بعد ذلك، وخلال سنتين دفعوا كل ما عليهم من ضرائب أي ٤٤٥٠٠ فرنكا، كما خضعوا لحدود من رسم السّلطات الاستعمارية لا يتجاوزونها وبالتالي تمّت محاصرتهم[٢٨]، كما تمّ تنظيمهم تحت سلطة ثماني مشيخات برئاسة القايد محمد الصّغير بن عبد الواحد، أما باقي أعراش النمامشة فقد استسلموا للأمر الواقع لينصرفوا منذ ١٨٥٩ إلى العمل الزّراعي مبدين نيَّتهم في عدم العودة إلى العصيان، بل تجاهلوا طلبا بالتمرّد من الباي الصّادق بن حسن الذي أعلن الحرب على فرنسا، ولم يبق من المتمرّدين والرّافضين سوى ٢٣٩ فردًا كلّهم من عرش العلاونة يتوزّعون كالآتي:

- ٥ من أولاد شامخ
- ٤ من الزرادمة
- ٣٠ من جلامدة
- ٢٠٠ من أولاد العيساوي وهم الأكثر تعنّتا ومتشبّثون بالطّريقة الحبابية التي ترفض الخضوع لذلك تعرّضوا إلى الهجوم مرّتين من قبل الجيش الفرنسي إحداهما كانت في أوت ١٨٥٨ على دوّار يتكوّن من ٣٠ خيمة بالقرب من الثليجان.

خَاتِمَةٌ

استطاع الاستعمار الفرنسي –بمساعدة أعيان مدينة تبسة– أن يخضع آخر جيوب المقاومة الجزائرية لتلحق منطقة الأوراس ببقية المجال الجزائري المحتل معلنًا بذلك إخضاع الجزائر للاستعمار الفرنسي سنة ١٨٥٨ رغم بقاء بعض الجيوب خارد دائرة السيطرة، وقد كشفت الأحداث عن شراسة وصلابة مجتمع القبائل الذي يرفض كل غريب عن مجاله مقابل استسلام ومهادنة مجتمع المدينة للاستعمار الفرنسي، فنمط عيش المجتمعين كان النقطة الفارقة في اتخاذ الموقف فأعيان المدينة يتعاملون مع الآخر بمنطق المصالح فبعد تهديد مصالحهم من قبل قبيلة النمامشة التجأوا إلى الاستعمار لحماية مصالحهم، ولكن غاب عنهم أن الاستعمار لا تعنيه سوى مصلحته فالمقاوم والمهادن سواسية عنده لأن سياسته هي نهب الثروات واستيطان البلاد.

الإحالات المرجعية:

(١) بيار (كاستال)، **حوز تبسة**، دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه من فجر التاريخ الى بداية القرن العشرين، تعريب وتحقيق وتقديم العربي عقون، مطبعة بغيجة حسام، الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٧٨.

(٢) لم تكن اعتداءات النمامشة تهم سكان مدينة تبسة فحسب، بل طالت حتى مجالات تونسية على الحدود معها وهي مجالات الفراشيش:

- **أ.و.ت، السلسلة التاريخية**، صندوق ٢١٢، ملف ٢٤١، الوثيقة عدد ١٢٨، أنظر أيضًا:

- ملف عدد ٢٣٢

- ملف عدد ١٩٩

(٣) ليون الافريقي (الحسن الوزان)، وصف أفريقيا، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦٤.

(٤) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٥) من مذكرات الجنرال دو نيقريي.

(٦) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ١٨١.

(٧) نفسه، ص ١٨٢.

(٨) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ١٨٢.

(٩) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ١٨٩.

(١٠) السّجل اليومي لحملة الجنرال هربيون، Extrait du journal de marche de la colonne du général Herbillon

(١١) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ٢٠٧.

(12) Bourdieu (P), **Le déracinement, La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie**, Les Editions de Minuit, 1964, p 16 .

(١٣) الماجري (الأزهر)، **القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ١٨٣٠ – ١٨٩٠ مسار التفكك وآليات المقاومة**، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، ٢٠١٣، ص ٩٠.

(14) Despois (J), **L'Afrique blanche française, L'Afrique du nord**, T 1, PUF, 1949, p 229.

(15) Ibid, pp 229- 230

أنظر أيضًا: رايسي (إدريس)، **القبائل الحدودية التونسية-الجزائرية بين الاجارة والاغارة (١٨٣٠ – ١٨٨١)**، مرجع سابق، ص ٢٧.

(١٦) الماجري (الأزهر)، **القبيلة الولائية والاستعمار...**، مرجع سابق، ص ١١٣.

(١٧) ١٨٥٢ - ١٨٥٥

(١٨) نفسه، ص ٩٣.

(١٩) الهواري (عدي)، **الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (١٨٣٠- ١٨٦٠)**، ترجمة جوزيف عيد الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣، ص ٧٨.

(20) Le colonel Robin, **Notes Documents concernant l'insurrection de 1856-1857**, Alger, 1902, p 27.

(٢١) الماجري (عبد الكريم)، **هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواونة إلى تونس (١٨٣١- ١٩٣٧)**، الشركة التونسية للرسم وتنمية فنون الرسم، تونس، ٢٠١٠، ص ٨٤.

(٢٢) الماجري (الأزهر)، **القبيلة الولائية...**، مرجع سابق، ص ١٨١، نقلاً عن:

- Le colonel Robin, **Notes Documents concernant l'insurrection de 1856-1857**, Alger, 1902, p 49.

(٢٣) الماجري (الأزهر)، **القبيلة الولائية...**، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٢٤) كاستال (بيار)، **حوز تبسة دراسة وصفيّة جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين**، تعريب وتحقيق وتقديم العربي غقون، مطبعة بغيجة حسام، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٢٠٤.

(٢٥) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٢٦) نفس المرجع، ص ١٧٦.

(٢٧) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ٢٠٥.

(٢٨) كاستال (بيار)، **حوز تبسة...**، مصدر سابق، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.